قضية الحرية وانعكاساتها في أدب آسيا وافريقيا

بقلم كمال جنبلاط

ايها الاخوان ،

أشكر رئيس الدولة ورئيس الحكومة على رعايتهما لهذا المؤتمر ، وباسمي وباسم اخوانكم أبناء شعب لبنـــان ، أحييكم وأرحب بكم ، وأتمنى لكم أطيب التأملات في هذا البلد الذي شاء قـدر تقاطع والتقاء المكان والزمان فيه أن يجعله على مفرق رئيسي من مفارق العالم القديم والحديث ، ومفصلة بين قارتي اسيا وافريقيا ، على انه امتداد معنوي طبيعي ، على هذا الشاطىء العربي الزاخر بامكانيات الاقتباس والتوليد، لارض « أوليس» (ulysse) وليونان فيثاغورس وتاليس وسقراط الكبرى والصغرى ، ولبلاد الفراعنة في وادي النيل الـذين طفت حضارتهم ، منذ بداية التاريخ آي قبل ستة الاف سنة ، على العالم القديم بأسره.

وفوق ذلك ، فان هذا البلد باب من أبواب الوطن العربي وايران، ومدخل لاسيا القريبة والبعيدة ، فلا عجب ان ولد منا أو نما بيننـــا فلاسفة وكتاب وحقوقيون وادباء امثـــال فورفوريوس ، ويامبلخوس ، وزينون ، والمتشرعون ، وبولص وبابينيانوس واولبيانوس ، كما انطلق أرباب التجارة والاكتشاف في مجاهل افريقيا واوروبا انذاك واصحاب القوافل تجوب متقدمة علـــى طرق الحرير والشاي والتوابل فـــي الاقدمين ، وكان هذا البلد فيما بعد موطن الامام الاوزاعي والسيـــد عبد الله التنوخي والبستاني الكبير وصاحب نفيـــر العرب اليازجي ، وشكيب أرسلان ، والمطران ، وجبران ، والريحاني ، وعمر فاخوري . ولا اذكر في الاحياء الا صديقنا ميخائيل نعيمة وشحادة .

فأهلا بكم وسهلا ، في هذا البلد الفاصل والرابط بين القمم والبحار وبين عالم الانهار والبوادي وانفراج فسحة الماء المالح تحت اقدام جباله .

في هذا المنتدى القديم الجديد ، نمت وتطورت وتعاقبت ألوان من نظم الحريات السياسية والاجتماعية والاقتصادية حتى لنكاد ، في تاريخ شعوبنا ، نتعرف اليها جميعا ، ولذا لو كان لنا حظ فيالتنقيب وفي التعمق وفي دراسة التحققات الفكرية والتأسيسية والاجتماعيـة الغابرة ، التي قامت منذ ضوء العقل في القدم حتى فجـر النصرانية والاسلام ثم بعـد انتشار الحضارة العربية وقيـام دولـة الخلافـة الكبرى ، لواجهنا الحرية بالروح التي تجمع بين الحق الشخصـي والمسؤولية ، بين مصلحة الجماعة ومصلحة الفرد الحقيقية ، بيـن حرية التأليف والنشر وواجب الالتـزام : اولا بقيم الحـق والخيـر والجمال الخالدة ، لانها من طبيعة الانسان وفي اس التكوين الاجتماعي، وثانيا بمواجهات النضال والعمل الانساني المباشر في جميع حقـوله والمرتبطة بتلك القيم . والانسان كل لا يتجزأ في مصيره ونشاطاتـه وتكوينه ، وعكسه للوجود ، وانعكاسه هو بدوره فيه .

قضية الحرية التي نجتمع لمناقشتها ، وتقدير انعكاسها في أدب كتاب اسيا وافريقيا هي قضية الانسان منذ أن وجد ، تستقطبه ثـم لا يلبث أن يستولي عليها ثم يرهقها ويقيدها أو يعبث بها أو لا يقدرها حق قدرها ، أو يمارسها على غير هدى ، ودون اطار من النظام المادي والحرمة المعنوية والمسؤولية الاجتماعية ، فترتد لتنتقم منه ، ثم يعود فيندرج في مسالكها وأسبابها ، ثم يؤوب الى استثثاره وعبثه ، ثـم ترجع هي لتثأر باسم القيم الانسانية الدائمة . وهكذا دواليك ، كأن التاريخ بأسره تناقض جدلي قد صنع من هذا الصراع بين الانسان وواقعه وبين الحرية ، بين الحرية وبين ما ولده الانسان وما سيبدعه حتى نهاية الآباد من أنظمة ومؤسسات ومفاهيم ، يحاول من خلالهـا أن يجلو حقيقته ويكشف عن اكناه ذات الوجود وودائعها في ذاته .

فالادب استثارة لهذه المعرفة الحقيقية الدائمـة ، وليس هـــو تقشية للواقع او تخيلا او خلقا من العدم ، أو ابداعا من الخواء الفراغ او تقليدا أجوف للحرف والخط الميت ...

وفي فعل المعرفة هذا ـ وهو نشاط نور العقل ـ يرتبط الانسان بوجوده الكياني وبوجود العالم الذي هو جزء لا يتجزأ منه في المقابلة والمشاركة والانبثاق الحسي .

واذا ما أدركنا ـ وفق بعض النظريات العلمية ، وهي تتلاقـــى وتتوافق مع خبرة وحكمة الاقدمين السابقين ـ أن المادة تكثف للطاقـة تتحول اليها وتنبع منها في دوام الصيرورة ، وان الحياة ترفع وتعقـد لهذه الطاقة الكونية ، وان العقل بدوره استعلاء وتحول لطاقة الحياة ، لادركنا الخلود والاستحالة ايضا في كل شيء ، لان الطاقة لا زوال لها البتة ، « وبها آي بنورها صنع كل شيء » ، ولاستوعبنا خاصة مـدى التزامنا بالكينونة وبصور ابداعها ، وبالعقل وبقيمه ومثالاته ، وتحركه الدائب في انشاء وابداع وترقية المؤسسات الاجتماعية والاقتصاديـة والسياسية ، وفي العلم والفنون والادب .

ثم ، وان نحن أوغلنا قليلا لنشهد منبع الحرية في التكويـــن لرأيناها تلازم الحياة دائما وأبدا ، كالرفيقة الامينة ، وكأنها هي هي.. فلولا حرية التبلور النسبية وحـــرية التنافر والتجاذب والاعتمـال المحدودة ، والتي أخرجت الجماد من قدر سنن الحتمية الى شرعـة الارجحية ، منذ النشأة الاولى ، لما تمكن التيار الحي أن يتجمع وينحصر ويتوارد لكي ينطلق من صميم طاقـــة الجماد ، وهكذا نرى الوعي وواجهته الحرية تواكب صعود الحياة في سلم تحقق النبات والحيوان، وتزداد نموا ووضوحا واستيعابا وانعكاسا لذاتها .. الى أن يبلغ هذا الوعي وهذه الحرية اقصى درجات تفتحهما في مستوى العقل وفـــي الانسان ... فالعقل صنو الحرية ونهجـــه فيها ونبعتها ، وهي ، أي الحرية ، بدورها شرط انطلاق المعرفـــة من مهد الامكان وعقـــال محض القـــوة .

وهكذا تكون الحرية أثمن شيء في الوجود التام ، اذا اقترنت في ممارستها وفي ابداعها ، بشرعة العقل وقيم استشفافه ، فالالـــتزام يقوم على مدى كون واسع قبل ان يقوم وينحصر في قضايا المجتمع والجيـــل .

من هذا المدخل الصغير ، يتصوب لبصيرتنا أن تدرك مقام الحرية وقضيتها في الادب الافريقي والاسيوي ، لا بل في أدب العالم أجمع ، وانما نحن نعيش في عالم ينزع اكثر فاكثر الى التجمع البشريوالتكور والتوحد ، رغم التنوع الظاهر للطبيعة البشرية وللامزجة وللاقاليـــم ولمستويات العلم والتقنية وتعدد الحضارات ، وذلك انعكاسا وتباينا لوحدة العقل ووحدة استكشافه وطلبته في حقل العلم والعمل ، وفي مجالات الفلسفة والادب والفن على السواء .

واننا لنستوعب اليوم ، اكثر من السابق ، مدى هذا الالتـــزام للعقل ، قبل ان يكون للحرية ، بمجريات الاحداث والتيارات الوطنية

والثقافية والسياسية التحررية ، لاننا أضحينا نعلم تماما ، كما تشير الى ذلك الدراسات الواعية الاجتماعية المتقدمة ، ان تراث الشعوب المتخلفة في افريقيا واسيا ، وبعضها لا يزال في طور البدائية الاولى ، ان هذا التراث ليس هو مجموعة من الصور والاساطير والطقوس الجاهلة المتأخرة كما كان يتصور ذلك بعض البدائيين في تلك الابحاث ، بل هو بالحقيقة حضارة قائمة حية غنية ، قد نكون أقرب الى نهج الحياة وروحها واوفق للمجاري النفسية والطبيعية البشرية من مدنيتنا الالية الصناعية على ان هذه الحضارات نسبية ، فيجب ان ننظر الى فنونها وحرفها وأدبها وآدابها وعلومها الدفينة وعاداتها بعين شعوبها ، اي ببصيرة فتوة الانسان الذي هو فينا ، لا بمنظار مدنيتنا الغربية التي هي معظم الاحيان سطحية في نظرتها للغير وغرورة وتبتعد بنا عن الطبيعة .

ومن هذه المواجهة تستبان اهمية العودة ، للاستيحاء والارتواء من آداب وفنون بعض الحضارات الاسيوية والافريقية والشرقية الكبرى التي كانت مدنيات انسانية في المعنى الصحيح للكلمة ، فارتفعت فوق مقاييس زمانها الى حاجات الطبيعة البشرية الدائمة ومطالب العيش وحقوق الانسان الخالدة ، وطلبة استكشاف العقل في انعكاسه على ذاته وعلى الوجود .

وقد تكون تلك الاساطير والقصص الواقعية وروايات الانس والالهة والادغال في الاقدمين والمحدثين ، ولدى جميع الشعوب المتخلفة والبدائية والنامية والمتحضرة ـ وكلنا مزيج من التخلف والنمو ـ أفضل مرقاة لنا وسلما للاستنارة بنهج وقواعد الالتزام المفروض .

وهنالك لون اخر لهذا الالتزام ، هو وجه الالتزام بالشكل وبالصورة الحسية والفكرية وبالكلمة التي تقرأ فتفهم ، وبالانغام التي ترتفع لمواكبتها التصورات والخيالات والعواطف او تستنفر في مقابلتها طبيعة الانسان ذاته على بساطة جوهره وعلى تركيب اعراضه وطلبة الحق والخير والمعرفة والجمال والحب في صفاء مراقيها في العقول وانعكاس أشباحها على مرآة الاذكار الاول القديم والمنطوي في ذهن الاجيال .

فالانسان لا يستطيع أن يفكر او يعرف او يشعر بدون شكل وصورة وكلمة ترافق الفكرة ، ووتيرة وايقاع ينسجم مع ايقاع الوجودية الحياتية ، العميقة جذورها في أغشيتنا وفي تلافيف دماغنا ، والنابضة في دمائنا وفي أعصابنا وفي أفئدة قلوبنا ، والمستبطنة لحافظتنا .

ولا ندري ما هو القصد من هذه الفنون التحليلية الحديثة في أوج لعب الانسان بالحرف والخط الصنم وفي فورة اللهو والعبث سوى وضع كئيب فلق للانسان الحديث يجعله يفتش عن ملجأ الفيل في الجرة ، أو عن نبضة الحياة في تفتيت نواة من النبات ، على حد المثل الهندي الشهير ، أو كمن يريد معرفة تكوين كف من الصلصال بتجزئته على التوالي والى غير حد ليرى سر الجمال فيه ، وهو لا يفطن ان الجمال البادي كان في الصورة المجتمعة وليس في الحبيبات التي تتألف منها هذه الصورة ، أو كمن يريد الكشف عن الروح والتعرف اليها في الانسان الميت بالتقصي عنها في أحشائه وفي دماغه وفي قلبه .

او لعلنا ـ فيما نراه من ازدهار للحرف والخط والهياكل الرمزية ـ فوق ما أشرنا اليه من ولوج الانسان الحديث في مجاري قدر قلقه ـ لعلنا فيما نراه من تصوير تحليلي ـ وفي موازاة العلوم الهندسية والجبرية المعبرة عن لون من الوان الوجود ـ لعلنا نكون في دور تطوير أبجدية عالمية شاملة جديدة .

وقصة الصورة ، كحديث القصة ، لا تنضب على لسان ولا تفنى في مخيلة ولا يعدم لها وفاء . بها بدأت الحروف ذاتها صورا معبرة في روعة الجمال في مصر وفي الصين وفي اللغات السامية ذاتها .

وفي هذا المنطلق ، ان الانسان الحديث ـ في شطريه ـ هو أشد حاجة لانسان العالم الثالث اكثر مما نتصور ، لان هذا الاخير ، بالنسبة لبقاء ونمو جسه الاسطوري ، لا يزال اقرب الى استجلاء اهداف التطور واستشعار مقاصده واستقراء مضامينه ، في المراحل المقبلة علينا ، وهو أشد قربا من نبضة الطبيعة المكونة للوجود المتحول المنعكس في النفس .

فلا عجب ان كانت بعض اداب وفنون وعادات البلاد ، التي أسموها خطأ بالشعوب البدائية أو المتخلفة والحضارات الشرقية غزت وأخذت تمعن في غزو المدنية الغربية حتى في أساليب عيشها ، لان هذه الشعوب التي نسميها متقدمة أو تسمي نفسها كذلك تشعر بفراغ طالب وبحاجة لهذه الاداب والفنون بعد ان غمرتها موجة العقائد الاقتصادية والالة . ولكن وجه الخطل يقوم بأن تتقبل شعوب الغرب هذا النتاج المعنوي بروحها هي ، أي أحيانا بذهنية القلق الفاعل والتلهي والتبديل والتيه ، لا بروحية تلك الشعوب المستقرة التي أبدعتها . وهنا يكمن الخطر في عملية التلقي لان هذه الشعوب المتقدمة قد بعدت عن مصادر الرمز والاسطورة والاثارة ، فتضحى تعيش بين ماءين وتسبح بين جدولين ، دون انتظار الملتقى لكليهما ، والذي سيجتمع فيه المجريان للنبع الواحد ذاته .

وهذا الالتزام يبعث أفضل ما في الماضي من تراث لا يحجبنا في أي حال عن واجب اليوم المباشر ، وعن الالتزام بالنهضة التحررية في نضالنا : فلانسان العالم الثالث شيء كثير يجب أن يقوله الى العالم .

بل يكون ذلك حافزا لنا للمجابهة وللتحدي المعنوي الظافر وللدفاع عن حقوق الانسانية المعذبة فينا .. وهذه قضية فلسطين العربية المغتصبة الشهيدة تدق أبواب العالم وتتوجه الى وحي عدالة العقول وتستفوي المحبة في القلوب وتستنفر الشباب والنساء والكهول منا ليوم العودة والفداء . مليون وربع المليون من البشر يطردهم الاستعمار الاميركي البريطاني ليحل مكانهم شعوبا تنتمي الى مختلف الجنسيات والامم . وهذه صيحة شعوب عدن والمحميات العربية ثورة لا تهدأ ولا تتوقف ولا تغلب ..

وهذه الصرخة الداوية لشعب فيتنام البطل يكافح بدمه وبعقله وبأسطورة بطولته أكبر قوة عسكرية وجدت في التاريخ فينتصر ولا يقهر ..

وهذه مواقع الاستعمار والتمييز العنصري في افريقيا واسيا وقواعد الاستعمار الجديد في اميركا اللاتينية تناضل لاجل الحرية والحياة الكريمة والمساواة .

هذه في آدابنا وفي شعرنا وفي فنوننا منطلقات لحكايات وهج

صدر حديثا

ديوان شعر

ثائر وحب

للدكتور ابو القاسم سعد الله

دار الاداب

الاساطير وانبعاثها حية في النفوس تروي صراع الانسان مع ابنـــاء جبابرة الالة في ملاعب الدنيا والاخرة .

ولكن هذا الكفاح العملي المباشر سيجد له غذاء جوهريا وامدادا معنويا وقوة وطاقة عظيمة فيما يتوجب علينا ان نقوله لانفسنا وللعالـــم من وحي حضاراتنا وثقافاتنا المتجددة المتطورة .

ولعل الازمة العابرة التي يعانيها تضامن الشعوب الافريقيـــة الاسيوية في علاقاتها مع بعض الدول تجد لها مجالا للعمل في هـــذا الاتجاه الوافر في التاثير وتنوع امداد حقوله ، ونعني في توضيـــح مفاهيم انسان العالم الثالث على ضـــوء تراثه القديم والمتجـــدد . واذ ذاك يكون لادباء وشعراء وفناني اسيا وافريقيا الحظ في تلقيـــح العالم بافضل ما لدينا من نظرة متشعبـــة غنية شاملة واصيـــلة للانسان .

وفي هذا المنعطف يقع على عاتقنا ان ننبش كنوز حضاراتنا مـــن مخابئها ، وبعضها لا يزال حيا .. متفاعلا متطورا كحضارات الشعـــوب الكبرى في اسيا ، وثقافات معظم بلدان اسيا وافريقيا . وبعضهـــا كحضارتنا العربية يكفي أن نزيل عن سطح غطائها بعض رماد الاجيال المتراكم ، لكي تظهر على اروع ما تقدمت به من عطاء لكل جيل .

وبكلمة ان الانسان الحديث العادي ، لفرط مـــا غشت عينيـــه فكما انه لا يمكن ولا يجوز القطع والفصل بين الانسان وبين تراثه ، فـــلا يمكن ايضا القطع بين الانسان وبين طبيعته .. او علـــى شاكلة قـــول طاغور بما معناه : « ان الشخصية البشرية هي غير متناهية .. وانـــي لارى نفسي في جميع وجوهها » .

هذه هي رسالة العالم الثالث ، المتحـــرر بمؤسساتـــه واقتصاده وادبه وفنونه من القومية الضيقة على الشاكلة التي عرفتها اوروبا فـــي القرن الثامن والتاسع عشر ، المتحرر مـــن العنصرية ومـــن مركـــب التفضيل وتمييز الاجناس ، المتحرر من الاستعمار فـــي جميع اشكاله والوانه المعلنة والخفية ، والخبيثة والظاهرة والمتجددة .

ان مواكب الغد المأمول ستشهد دور انسان العالم الثالث فـــي استنباط افضل ما في القرب ، فـي شطريه واختباريه ، وفـــي تلقيح هذا المجتمع المتطور بخير ما لدينا جميعا من تـــراث معنوي وانساني ونظرة واقعية وشاملة لمواجهات الانسان في تحقيق وجوده ، وذلـــك لان رجل افريقيا واسيا لا يزال في عيشه وفي فطرته وفـــي حضارته يمازج ويخالط ويعاشر الاسطورة في الحياة .. وهـــل حيـــاة كل منـــا ، اذا ارتضيناها وتقبلها فرح الوجدان ، سوى ابرز واحلى الاساطير المقولـــة او المكتوبة او التي لم يتعمدها بعد خاطر الفنـــان والتـــي تنبـــع جميعها من وعي نفوسنا ورغبتنا في تصور الوجود ؟. وهـــل الافكـــار وطارقات الوحي والعواطف ذاتها التـــي تتوالى وتتوارد ـ بالرغم منـــا معظـــم الاحيان ، وبارادتنا مرارا قليلة ـ على خاطر الحلم ولوح اليقظة العادية سوى رموز وتعابير مصورة ، ننكب على فراستها واستكشاف جذورهـــا وتاويلها وتفكيك احاجيها والغوص في اعماقها ، كمن يرقب ويتابع فـــي تنبهه جريان أسطورة دائمة اخرى نشعر ـ في مرتقى الشهود ـ وكأننـــا عنها تماما غرباء .

وبعد ، اخذ الله بيدكم لاجل تتميم هذا الاجتماع في عبق نـــدى الارز وفي بلـــد عربي مستقل يعتـــز بمشاركتـــه وبنضالـــه ، ولاتخـــاذ التوصيات ، التي يقتضيها واجب المواجهة والعدالة في عالم تحف بنـــا اخطاره وتقلقنا هواجسه ، ويشوبنا سوء طالعـــه فـــي التسلح الدائب وفي ارادة التسلط والاستعمار وفي الانقسام ، وهم يبذرون عـــلى لعب ودمى اسلحتهم العادية والذرية ما يقرب من ماية وخمسين مليارا مـــن الدولارات سنويا ، هذا بينما نصف لا بـــل ثلث شعوب اسيا وافريقيا يتضورون من انعدام الغذاء ومن الحرمان ومـــن التخلف الاقتصادي الشامـــل .

طابت نزلتكم بيننا ووفادتكم على الرحب والسعة وفـــق التقاليـــد اللبنانية العربية والسلام عليكم ..

كمال جنبلاط

صدر حديثا :

٤٠٠ القاضي الجرجاني ـ الاديب الناقد	الدكتور محمود السمرة
٣٠٠ كلمة الامام الحسن	السيد حسن الشيرازي
٧٥ كيف تعلم الحساب	محمد كاظم مكي ، علي العبد الله ، كامل سليمان
٧٥ كيف تعلم التاريخ	محمد كاظم مكي ، علي العبد الله ، كامل سليمان
٣٠٠ حبي له اكثر ديوان شعر	خازن عبود
٢٠٠ مع الاعلام من رجالات العروبة والاسلام	محمد عبد الرحمن الجديلي
٣٠٠ قطرات من الدموع	سميرة بنت الجزيرة العربية
٥٠٠ بريق عينيك	سميرة بنت الجزيرة العربية
٢٠٠ وادي الدموع	سميرة بنت الجزيرة العربية
٢٠٠ ذكريات دامعة	سميرة بنت الجزيرة العربية

منشـــورات

المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت

ص. ب ٢٦٦٨ ـ بيـــروت